جلال الدين السيوطي .. العالم بن الكتب

يعتبر العالم الموسوعي جلال الدين السيوطي من أبرز معالم الحركة العلمية والدينية والأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، حيث كان إماما حافظا، ومفسرا، ومؤرخا، وأديبا، وفقيها شافعيا. له نحو 600 مؤلف. ملأ نشاطه العلمي في التأليف مختلف الفروع في ذلك الزمان من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وطبقات ونحو ولغة وأدب وغيرها، فقد كان عالما موسوعي الثقافة والاطلاع.

يقال أن الذي أعان جلال الدين السيوطي على كثرة تأليفه، انقطاعه التام عن العمل والحياة العامة وهو في سن الأربعين حتى وفاته، فضلا عن ثراء مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي (45 سنة)، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له 22 عامًا متواصلة، ولو وُزع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليوم الواحد 40 ورقة، على أن القسم الأكبر من تأليفه كان جمعًا وتلخيصًا وتذييلا على مؤلفات غيره، أما نصيبه من الإبداع الذاتي فجِدّ قليل.

تمنى السيوطي أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة لعلمه الغزير، فيقول: "إني ترجيت من نعم الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم. زادت مؤلفات السيوطي على الثلاثمائة كتاب ورسالة، وعدّ له بروكلمان 415 مؤلفا، وأحصى له حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون" حوالي 576 مؤلفا، ووصل بها البعض كابن إياس إلى 600 مؤلف.

من هو جلال الدين السيوطي؟

هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي، (القاهرة 849 هـ/1445م – القاهرة 911 هـ/1505م) إمام حافظ، ومفسر، ومؤرخ، وأديب، وفقيه شافعي. له نحو 600 مصنف.

ينتمي جلال الدين السيوطي إلى أسرة تعود جذورها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه همام الدين الخضيري، نسبة إلى محلة الخضيرية في بغداد، بينما هو ذكر أنه أنصاري جعفري الأرومة وإن جده من أم شريفة النسب.

نشأ في القاهرة يتيماً، إذ مات والده وعمره خمس سنوات، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها، وبقي على ذلك إلى أن توفي.

وكان يلقب بـ "ابن الكتب" لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب.

مولده ونشأتهوحياته

وُلد الإمام السُّيوطي في مصر في بداية شهر رجب سنة 849 من العام الهجري، الذي يوافق الثالث من تشرين الأوّل من عام 1445 ميلادي، واسمه: عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الأسيوطي نسبة لبلد تُسمّى أسيوط في صعيد مصر. وقد لقَّبه أبوه بجلال الدين، وابن الكتب، لأنَّه وُلد عند الكتب، وكان شيخه عِزّ الدين أحمد الحنبلي قد كنّاه بأبي الفضل. وكان أبو الإمام السيوطي من أهل العلم وقد عمل في بلدته أسيوط وتولّى حكمها نيابةً، وقد سمّع صحيح مسلم على الحافظ ابن حجر العسقلاني في القاهرة، وأخذ علوم الفقه والكلام من الإمام شمس الدين القياتي.

ضريح العلامة جلال الدين السيوطي في القاهرة

أما حياة السيوطي فقد كانت حياة مليئة بالعلم والرحلات إليه، لازم خلالها العديد من العلماء، وحفظ عن الكثير من العلماء، فقد وُلد الإمام السيوطي لعائلةٍ من أهل العلم، فقد عُرف جدّه همام الدين بأنَّه من "أهل الحقيقة ومن مشايخ الطريقة"، وكان والده إماماً في الفقه والفرض وغيرها الكثير من العلوم.ونشأ السيوطي في القاهرة، حيث كان والده يسكن فيها، وكان الإمام الحافظ ابن حجر -وهو شيخ والده- يُقيم فيها المجالس، وقد حضر السيوطي مع والده مجلساً له وهو بعمر الثالثة، وقد حفِظ السيوطي من القرآن الكريم حتى سورة التحريم بحياة والده، إذ تُوفّي والده وهو بالسادسة من العمر، وأصبح تحت وصاية الشيخ جمال الدين بن الهمام.

أكمل السيوطي حفظه لكتاب الله لما بلغ الثامنة من عمره، وتمتّع منذ الصغر بالذكاء وقوة الحفظ، فبعد حفظه لكتاب الله حَفِظ عدداً من الكتب؛ مثل كتاب عمدة الأحكام، والمنهاج الفرعي في الفقه للنووي، والمنهاج في الأصول، وألفية ابن مالك في النحو، ومنهاج البيضاوي، وعَرض حفظه على الشيوخ في ذلك الوقت.. وبدأ السيوطي برحلة طلب العلم قبل سن الخامسة عشر، ودرس على يد عددٍ من الشيوخ؛ كالشمس محمد بن موسى الحنفي، والفخر عثمان المقسي، والشموس البامي، وابن الفالاتي، وابن يوسف، والعجلوني، والنعماني، وقد أخذ عنهم الفقه والنحو، ودرس الفرائض مع الشيخ شهاب الدين الشارمساحي.

ولما بَلَغ السيوطي السابعة عشر من العُمُر سُمح له بتدريس اللغة العربية، وكان قد ألّف كتاباً في الاستعاذة والبسملة، وقد مدح كتابه شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، وقد بدأ بالتدريس والإفتاء لما بلغ السابعة والعشرين، وكتب -رحمه الله- شرحاً في ألفية ابن مالك، وجمع الجوامع في العربية، وعرضهم على شيخه تقي الدين الشمسي وقد أثنى عليه.

لزم السيوطي الشيخ شرف الدين المناوي وقرأ عليه عدداً من كتب الفقه والتفسير، وبقي مع العلّامة محيي الدين الكافيجي لمدة أربع عشرة سنة، وقد أجازه في التفسير، والأصول العربية، والمعاني، وكان يُتابع دروس الشيخ سيف الدين الحنفي ويحضرها.

مقام جلال الدين السيوطي بأسيوط

انتقل لدمياط والاسكندرية والفيوم والمحلّة، وقصد بيت الله الحرام للحجّ، ومكث في مكة لمدّة سنةٍ كاملة، وسافر إلى بلاد الشام والمغرب، ووصل غينيا، وكانت تُسمّى التكرور في ذلك الوقت، وأخذ العلم على يد عددٍ من الشيوخ، وأجازوه بالكثير من العلوم التي أخذها عنهم.

قرّر الإمام السيوطي اعتزال الناس، وتفرَّغ للعبادة والتصنيف لمَّا بلغ من العمر عتيا، فبقي في منزله في القاهرة في منطقةٍ تُسمّى روضة المقياس، وترك الإفتاء واعتذر عنه، وبقي معتزلاً الناس حتى توفَّاه الله.

شيوخه وتلامذته

عاش السيوطي في عصر كثر فيه العلماء الأعلام الذين نبغوا في علوم الدين على تعدد ميادينها، وتوفروا على علوم اللغة بمختلف فروعها، وأسهموا في ميدان الإبداع الأدبي، فتأثر السيوطي بهذه النخبة الممتازة من كبار العلماء، فابتدأ في طلب العلم سنة 864 هـ، 1459م، ودرس الفقه والنحو والفرائض، ولم يمض عامان حتى أجيز بتدريس اللغة العربية، وألف في تلك السنة أول كتبه وهو في سن السابعة عشرة، فألف "شرح الاستعاذة والبسملة" فأثنى عليه شيخه علم الدين البلقيني.

وكان منهج السيوطي في الجلوس إلى المشايخ هو أنه يختار شيخًا واحدًا يجلس إليه، فإذا ما توفي انتقل إلى غيره، وكان عمدة شيوخه محيي الدين الكافيجي الذي لازمه السيوطي أربعة عشر عامًا كاملة وأخذ منه أغلب علمه، وأطلق عليه لقب "أستاذ الوجود"، ومن شيوخه:

- شرف الدين المناوي وأخذ عنه القرآن والفقه

- تقي الدين الشبلي وأخذ عنه الحديث أربع سنين

- الكافيجي الذي لازمه أربعة عشر عامًا وأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني

- الأقصرائي شيخ الحنفية الذي أخذ عنه علما كثيرا

- العز الحنبلي

- المرزباني

- جلال الدين المحلي

- تقي الدين الشمني وغيرهم كثير..

أخذ السيوطي علم الحديث فقط عن 150 شيخًا من النابهين في هذا العلم. ولم يقتصر تلقي السيوطي على الشيوخ من العلماء الرجال، بل كان له شيوخ من النساء اللاتي بلغن الغاية في العلم، منهن:

- آسية بنت جار الله بن صالح

- كمالية بنت محمد الهاشمية

- أم هانئ بنت أبي الحسن الهرويني

- أم الفضل بنت محمد المقدسي وغيرهن كثير.

أما تلاميذه فهم كثر أيضا، بل هم من الكثرة والنجابة بمكان، وأبرزهم:

- شمس الدين الداودي صاحب كتاب "طبقات المفسرين".

- شمس الدين بن طولون

- شمس الدين الشامي محدث الديار المصرية

- المؤرخ الكبير ابن إياس» صاحب كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور"

- زين الدين الشماع

خصوماته مع العلماء واعتزاله الحياة العامة

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عدد من علماء عصره، كان ميدانها الحملات الشرسة في النقد اللاذع في الترجمة المتبادلة، ومن خصومه: البرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوجري، غير أن أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي أتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه.

لم يقف السيوطي مكتوف الأيدي في هذه الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها "مقامة الكاوي في الرد على السخاوي" نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام. وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له من اعتداء في الخانقاه البيبرسية أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها المقامة اللؤلؤية، ورسالة "التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس".

تنبه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوبوه إلى هذا العالم الجليل من سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد أن يسترضي هذا العالم الجليل الذي لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرغه للعبادة والتأليف.

أخلاق السيوطي وشخصيته

عُرف السيوطي بالتواضع، والصفاء، والوضوح، والثّقة العالية بالنّفس، فقد كان صريحاً في الحديث عن نفسه عن نِعم الله -تعالى- التي حَظِي بها، وكان يذكر خِصاله الجيّدة والمُمَيّزة، وقد قال في ذلك: "أقول ذلك تحدّثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً، وأي شيء في الدنيا حتى يُطلب تحصيلها في الفخر، وقد أزِف الرحيل وبدا الشيب وذهب أطيب العمر.

وكان وَرِعاً، تقياً، مُتمسّكاً بسنّة النبي -ﷺ-، ومتّخذاً علماء السلف قدوةً وأسوةً له. كما اتّسم بالشجاعة، وقول كلمة الحق، وكان صاحب مسؤوليةٍ كبيرةٍ وعظيمة، وهي أمانة نشر العلم، وحَرِص على الاجتهاد في العمل، وتأليف ما يستطيع من المؤلّفات التي تعود على الناس بالخير، وكان مُحبّاً للخير والصلاح. ولم يكن يُجيب على الأسئلة إلا عند التأكّد منها، فكان حريصاً على التأنّي وعدم الاستعجال، فكان يقول: "ما أجبت قط عن مسألةٍ جواباً إلا وأعددْت جوابها بين يدي الله -تعالى- إن سُئِلت عنها".

اجتهد الإمام السيوطي وتبحّر وتوسع في العلم، ولم يكتفِ بعلمٍ واحدٍ بل بسبعة علومٍ، وهي التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، وكان يملك معرفةً قويّة بباقي العلوم؛ كأصول الفقه، والفرائض، والحساب، والإنشاء، والتصرف، والجدل، وغيرها. ولم يكن السيوطي مجرّد قارئٍ وباحثٍ يستنبط ويشرح؛ بل كان مُجدِّداً مُتميّزاً لم يُشبهه أحدٌ في زمانه، ولا ماثله أحدٌ في مؤلّفاته، وقد ألّف الكثير من الكتب والموسوعات، وتفرّد بها وبموضوعاتها، وتُعتبر من المراجع المهمّة للأمّة الإسلامية، كموسعاته في علوم القرآن، والحديث، والفقه، والبلاغة، والنحو، والطبقات، وغيرها.

ويُعتبر الإمام السيوطي من آخر الأئمة والحُفّاظ الكِبار، فقد أثنى عليه ومدحه عددٌ كبيرٌ من العلماء والشيوخ، إلا أنَّه انتُقد من عددٍ من العلماء كالسخاوي وغيره بسبب اجتهاده، مع العلم أنَّ الإمام السيوطي لم يستقل في الاجتهاد، بل كان يلتزم بأصول الإمام الشافعي -رحمه الله-، وما حصل بين السيوطي والسخاوي لا يعدّ خلافاً إنَّما تنافس كالذي يكون بين الأقران من العلماء.

وحظيَ الإمام السيوطي بمكانةٍ رفيعةٍ في المجتمع، فقد كان تحت وِصاية كمال الدين، وهو من كبار فقهاء الحنفية في ذلك الوقت، وكان مقرّباً من الخلفاء العباسيين بفضل والده والسلاطين، كالسلطان قايتباي. ولمّا بلغ من العلم الكثير أصبح من كبار علماء عصره، وعلا شأنه وارتفعت منزلته في المجتمع، فقد كان مؤثراً وصاحبِ كلمةٍ، وكان معروفاً في مصر وبلاد الشام، وانتفع الناس من علمه وكتبه، واعتُمدت فتاويه عند السلاطين والعوامّ، وانتشرت في مصر وبلاد الشام.

مؤلفاته

ألف جلال الدين السيوطي عددا كبيرا من الكتب والرسائل إذ يذكر ابن إياس في "تاريخ مصر" أن مصنفات السيوطي بلغت ست مائة مصنف. وقد ألف في طيف واسع من المواضيع تشمل التفسير والفقه والحديث والأصول والنحو والبلاغة والتاريخ والتصوف والأدب وغيرها. ومن هذه المصنفات:

- الإتقان في علوم القرآن

- مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة (شرح سنن ابن ماجه)

- رسائل الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في نجاة والدي النبي

- إسعاف المبطأ برجال الموطأ

- الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء

- الأشباه والنظائر (في النحو)

- الأشباه والنظائر (في أصول الفقه وقواعده الكلية)

- الجامع الصغير من حديث البشير النذير

- الجامع الكبير

- الحاوي للفتاوى

- إحياء الميت بفضائل أهل البيت

- الحبائك في أخبار الملائك

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور

- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة

- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج

- الروض الأنيق في فضل الصديق

- العرف الوردي في أخبار المهدي

- الغرر في فضائل عمر

- ألفية السيوطي

- الكاوي على تاريخ السخاوي

- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

- المَدْرَج إلى المُدْرَج

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها

- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب

- الإكليل في استنباط التنزيل

- أسباب ورود الحديث

- أسرار ترتيب القرآن

- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب

- إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين

- إعراب القرآن

- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر

- تاريخ الخلفاء

- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص

- تحفة الأبرار بنكت الأذكار النووية

- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي

- تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك

- تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش

- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك

- تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

- در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة

- ذم المكس

- شرح السيوطي على سنن النسائي

- صفة صاحب الذوق السليم

- طبقات الحفاظ

- طبقات المفسرين

- عقود الجمان في علم المعاني والبيان

- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث

- البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر

- عين الإصابة في معرفة الصحابة

- كشف المغطي في شرح الموطأ

- لب اللباب في تحرير الأنساب

- لباب الحديث

- لباب النقول في أسباب النزول

- ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين

- مشتهى العقول في منتهى النقول

- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين

- مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة

- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن

- نظم العقيان في أعيان الأعيان

- همع الهوامع شرح جمع الجوامع

- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام

- التحدث بنعمة الله – ذكر فيه بعض علومه وترجمته.

- معجم مؤلفات السيوطي – وأسماه تارة: "فهرست مؤلفاتي".

- الفارق بين المصنف والسارق – وهو أول كتاب فقهي حول الملكية الفكرية التي لم يتعرف عليها العالم إلا في عام 1886م، من خلال إتفاقية برن لحقوق المؤلف.

- طب النفوس.

- الثغور الباسمة في مناقب سيدتنا فاطمة.

وفاته

توفي الإمام السيوطي في منزله بروضة المقياس على النيل في القاهرة في 19 جمادى الأولى سنة 911 هـ، الموافق 20 أكتوبر 1505 م، ودفن خارج باب القرافة في القاهرة، ومنطقة مدفنه تعرف الآن بمقابر سيدي جلال نسبة إليه، وقبره معروف هناك.

مصادر

"السيوطي.. صاحب الـ7 علوم" – ارشيف اسلام اونلاين.

"من هو السيوطي" – الإسلام سؤال وجواب"

جلال الدين السيوطي – مصطفى الشكعة- 1981م.

الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة

الأعلام للزركلي

معجم المؤرخين المسلمين – اعداد يسري عبد الغني عبد الله